﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأنعام: 135]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بينَ تأكيدِ وقوعِ الوعيدِ، والتّهديدِ بسُوءِ عاقبةِ الكافرينَ

بعد أن خاطب المشركين وما توعَّدهم به من العذابِ بقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ انتقل هُنا إلى أسلوب أمرٍ خرج إلى معنى التَّهديد والوعيدِ في قوله: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ وفيه غايةُ الزَّجرِ. كما أنَّها تصوِّرُ غايةَ العجزِ الَّتي تستمدُّ معناها من قوله في الآية السَّابقة: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾، فصارتِ الآيةُ كلُّها، تحدِّيًا واضحًا، وإعجازًا تامًّا للمخاطبين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾: أصلُ المَكان: الموضِعُ الحاوي للشَّيء[1]. والمكانَةُ: المَنزلَةُ، فُلانٌ مَكينٌ عند فُلانٍ: بَيِّنُ المَكانةِ والمنزلة، والجَمْعُ مُكناءُ[2]، ومَكَّنتُهُ ومَكَّنتُ له، فتمكَّن، قال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ﴾ [القصص: 57]. ويُقال: مكانٌ ومكانةٌ، وقوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: 20] أي: مُتمكِّنٌ ذي قَدْرٍ ومَنزلَة، ومَكناتُ الطَّير ومَكُناتها: مَقارُّه[3]. قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ كنايةٌ عَنِ الحالةِ؛ لأنَّ أحوالَ المَرءِ تَظْهَرُ في مكانهِ ومَقَرِّهِ، والمقصودُ بـ ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ في الآية: الزَموا حالَكُمْ.

2) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: أصلُ مُفردة (عقب) يَدُلُّ على تَأْخيرِ شَيءٍ وإتيانه بعدَ غيرِه، وكُلُّ شَيْءٍ يَعْقُبُ شَيئًا، فهو عَقيبُهُ[4]، والعَقِبُ: مُؤخَّرُ

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات: (مكن).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (مكن)، وابن سيده، المخصّص: 3/397.
(3) الراغب الأصفهاني، المفردات: (مكن).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).

الرِّجْل[1]. والعاقِبَةُ: آخِرُ الأَمرِ، وأَثَرُ عَمَلِ العامِلِ، فعاقِبةُ كُلِّ شَيءٍ هي ما يَنجلي عنه الشَّيءُ، ويظهَرُ في آخِرِهِ مِنْ أثَرٍ ونَتيجة[2]. قال الرَّاغِبُ: العاقِبَةُ والعُقْبَى يَخْتَصَّانِ بالثَّواب، نَحْوُ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128]، وبالإضافةِ قَدْ يُستَعمَلُ في العُقوبَةِ، نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الرّوم: 10][3]. وسُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تَتْلو الذَّنْبَ، مِن تَعَقَّبَهُ؛ إذا تَبِعَهُ، وتَعَقَّبْتُ الرَّجلَ، أي: أخذتُهُ بذَنْبٍ كان مِنْهُ، والجمع: عُقُوبَاتٌ[4]. والمقصود من ﴿عَٰقِبَةُ﴾ في الآية: هي الجنَّة، أي: عاقِبَةُ الدُّنيا بالجنَّة.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

تَقريرُ سُنَّةٍ مِن سُنَنِ اللهِ تعالى، في إمْهالِ الظَّالِم دونَ إهْمالِهِ

أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ أنْ يُخبِرَ قَومَه مِن مُشْركي قريشٍ؛ إذا دعاهم إلى اللهِ، فلم يَنْقادوا لدَعْوَتِه: أنْ يَعْمَلوا ما هم عامِلونَ على حالَتِهم التي هُم عليها، وارتَضَوْها لأنفُسِهم، وأنَّه عامِلٌ بما أمَرَه ربُّهُ، وأنَّهم سَوْفَ يعلمونَ عند نزولِ نِقْمةِ اللهِ بهم، أيُّهم أصابَ طريقَ الهُدى، فتكون له العاقبةُ الحسَنَةُ في الدُّنيا والآخرة، أهمُ المؤمنونَ، أم المشركونَ، فإنَّه لا يفوزُ برضوانِ اللهِ تعالى والجنَّة مَن تجاوز حدَّهُ وظلم، فأشرك مع اللهِ غيرَهُ، وفي الآية إيماءٌ إلى أنَّ أحوال الأُمم مُرتَّبةٌ بحسب أعمالها، وأنَّ أعمالها مُنبعِثةٌ من عقائدها وصفاتِها النَّفسيَّة، وأنَّ عاقبةَ كلِّ عملٍ نتيجةٌ حتميَّةٌ له، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشَرٌّ، وفيها أنَّ الحِجاجَ المذكورَ من الإنصاف بموضع عظيم، حيث بيَّن الأعمالَ وعامليها، وجعلَ الجزاءَ مقرونًا بنظر البصير، ضاربًا فيه صفحًا عن التَّصريح الذي يغني عنه التَّلويحُ[5].

(1) الراغب، المفردات: (عقب).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/أ92.
(3) الرّاغب، المفردات: (عقب).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 9/568، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/348، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/343، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 274، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/أ91 - 93، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 8/39.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الأمرِ في المَطْلعِ، بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ﴾:

التَّهديدُ دَالٌّ على ما هُم عليه منَ الإصـــرارِ على الضَّلالِ

بعد أن بيَّن حال الَّذين لا يؤمنون ومآلهم، أمرَ رسولَهُ أن يخاطبَهم بهذا الوعيد المسبوك، على الدَّعوة إلى الإرشادِ، فقال: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، أي: اعملوا منتهى استطاعتِكم، وقدرتِكم، في معارضة الدَّعوةِ ومقامها، وصَدِّ أهلها، وهو أمرٌ خرج إلى معنى التَّهديد والوعيد؛ لأنَّهم لم يستجيبوا إلى دعوة النَّبيِّ وإلى رسالته، أو المعنى: اعملوا على شاكلتكم إنِّي عاملٌ على شاكلتي ودعوتي ورسالتي التي هداني ربِّي إليها، ودلالةُ الأمر هنا التَّهديدُ على ما هم عليه من العناد والإصرار على الضَّلالِ. والأمر في الآية مثل الأمرِ في قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [فصّلت: 40]، بجامع التَّهديد بينهما.

سِرُّ نِداءِ القومِ بواسطةِ (يا) النِّداءِ:

لَنْ يَنفعَ الرَّسولُ قومَه في شيءٍ، ما لم يُؤمنُواْ

وأمرَ أن يَبتدِئَ مخاطبَتَهم بالنِّداء للاهتمام بما سيقال لهم؛ لأنَّ النِّداءَ يسترعي إسماع المنادين، وكأنَّ المنادي عنوانُ القوم لما يشعر به من أنَّه قد رقَّ لحالهم حين توعَّدهم بقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾؛ لأنَّ الشَّأن أنَّه يُحبُّ لقومه ما يُحبُّ لنفسه[1]. كما يوحي من جهتِهم وهو يناديهم بـ ﴿يَٰقَوْمِ﴾ أنَّه لن ينفعَهم شيئًا، ولن يكون لهم عليه شفاعةٌ؛ إذ دعاهم إلى الإيمان، فرفضوا، وأنكروا، فالمنادي هنا يُخلِّص نفسَه ممَّا تعارف عليه القومُ من الأعراف القبليَّة، كقولهم: انصر قريبَكَ حتى وإنْ كان ظالمًا. وهذه المسألةُ هي فحوى أمرِ الله لنبيِّه أنْ يناديَهم ويخاطبَهم بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/90.

الأمرُ بالنِّداء ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ﴾:

غـايـةُ الـزَّجـرِ؛ إشـعـارُهـم في ضـلالِـهـم باستِحقاقِهم للعُقوبةِ.

ثمَّ إنَّ النِّداءَ للقوم المعاندين، بقرينة المقام الدَّالِّ على أنَّ الأمرَ للتَّهديد، وأنَّ عملَهم مخالفٌ لعملِه، لقولِه: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾، مع قوله: ﴿إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾. فبعد أن توعَّد القومَ الّذين لا يؤمنون بقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ﴾، استأنفَ بقوله: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، فأعقبَ الوعيدَ بما تمحَّض عنه، بأمرٍ مستعمَلٍ في الإنذار والتَّهديد، وغاية الزَّجرِ؛ ليُملي لهم في ضلالهم إملاءً يُشعر بمزيدِ استحقاقِهم للعقوبة، واقترابِها منهم، فأمرَ اللّهُ رسوله ﷺ بمناداتِهم وتهديدِهم.

بَلاغةُ التَّهديدِ بصِيغةِ الأمرِ:

وُثـوقُ الآمـرِ بـالـحـقِّ، ومـا عليه قومُهُ منَ الضَّلالِ

وصيغةُ (افْعَلْ) في قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ ها هنا بمعنى الوعيد، فخرجَ الأمرُ إلى غرض التَّهديدِ، فقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، أمرٌ من اللّهِ تعالى لنبيِّهِ بوعيدهم وتهديدِهم[1]. والتَّهديدُ بصيغة الأمر مبالغةٌ في الوعيد كأنَّ المهدِّدَ يريد تعذيبَهُ مجمِعًا عليه، فيحملُه بالأمر على ما يُفضي به إليه، وتسجيلٌ بأن المُهَدَّدَ لا يتأتَّى منه إلَّا الشَّرُّ كالمأمورِ به الَّذي لا يقدر أن ينقضيَ عنه[2]. ويدلُّ الأمرُ هنا كذلك على ثقةِ القائل ﷺ ممَّا هم عليه من الضَّلال، وهو واثِقٌ من مصيرهم الذي هم إليه منتهون: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[3]؛ إذ إنَّ الآمرَ غير راضٍ عن الفعلِ، وفي الامتثال لأمرٍ ما يعود بالضَّرر على المُخاطب[4]، فالتَّهديد من الرَّسول ﷺ بأنَّه نافضٌ يديه من أمرهم، واثقٌ مِمَّا هو عليه من الحقِّ، واثقٌ من منهجِهِ وطريقِهِ[5].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/129.
(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 2/183.
(3) الشّحود، القرآن الكريم وقضايا العقيدة، ص: 95.
(4) طبل، علم المعاني، ص: 69.
(5) الشّحود، القرآن الكريم وقضايا العقيدة، ص: 95.

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ الأمرِ ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾:

التَّهكُّمُ على أمرِهم، بجعْلِ المَنهيِّ عنه، وكأنّه صارَ واجبًا

والأمر للتَّهديد من قبيل الاستعارةِ تشبيهًا لذلك المعنى بالمعنى المأمورِ بهِ الواجب الَّذي لابدَّ أن يكون[1]. وقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، كقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: 40] وهذا الاستعمالُ استعارةٌ؛ إذ يشبِّهُ المغضوبَ عليه الميؤوسَ من ارعوائهِ بالمأمورِ بأن يفعلَ ما كان ينهى عنه، فكأنَّ ذلك المنهيَّ صار واجبًا، وهذا أسلوبُ تهكُّمٍ[2].

فائِدةُ حذْفِ مفعولِ ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾:

تجاهُلُ عَملِ المُنكِرين استهانةٌ بحالِهم

ومفعولُ ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ محذوفٌ؛ لأنَّ الفعلَ نُزِّل منزلةَ اللَّازم، أي: اعملوا عملَكم المألوفَ الذي هو دأبُكم، وهو الإعراضُ والتَّكذيبُ بالحقِّ، وما فيه من استهانةٍ وتحقيرٍ بحالهم وأفعالهم، ثُمَّ ما في ذلك الحذفِ والإيجاز من فظيعِ التهديد والوعيد، وكأنَّه قد خبَّأ لهم من العذاب ما يَفْجَؤُهم، فيبقَوْن في تحسُّبٍ وقلقٍ في الدُّنيا، ما داموا على إعراضِهم، وعلى مكانتِهم، فيكون المعنى: اعملوا على ما أنتم عليه[3].

بَلاغةُ الاستعارةِ بالحرفِ ﴿عَلَىٰ﴾:

لا مَطمعَ في هِدايةِ المُنكِرين المُعانِدين

في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾: ﴿عَلَىٰ﴾ مستعمَلةٌ في التَّمَكُّن على وجه الاستعارةِ التَّبعيَّة، وهي تصريحيَّةٌ مناسبة لاستعارة المكانةِ للحالةِ؛ لأنَّ ورودَ حرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ مناسبٌ للمشبَّه به، وهو المكان، فيكون ترشيحًا للاستعارة، مستعارٌ من ملائم المشبَّه بهِ لملائم المشبَّه. والمعنى: الزموا حالَكم، فلا مطمعَ لي في اتِّباعكم، أو لا مطمعَ لي في هدايتكم، فتكون المكانةُ مستعارةً

(1) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/386.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/90.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/293.

للأحوال الشخصيَّةِ والعقائد الدينيَّة والسُّلوك، والمعنى: اعملوا على شاكلتكم الَّتي أنتم عليها[1].

بَلاغةُ الكنايةِ، في قولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾:

قولُهُ: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ ومكانكم ومكاناتكُمْ، بمعنى: على موضعِكم[2]. وهذا على سبيل الكنايةِ؛ لأنَّ المكانةَ بمعنى المكان، وقوله: ﴿إِنِّي عَٰمِلٞ﴾، أي: (إنِّي عاملٌ على مكانتي)، فمتفرِّعٌ على الوجهين في ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾[3]. وإطلاقُ الدَّارِ في آيةٍ سابقةٍ، من قوله: ﴿۞لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [الأنعام: 127]، مناسبٌ للمكانةِ الَّتي ذُكرت للمتذكِّرين عند ربِّهم - جلَّ وعلا - يومَ القيامة، وهي دار السَّلامةِ والأمان من كلِّ مكروهٍ، وهي الجنَّةُ، وهذا يفيد أنْ تكون المكانةُ كنايةً عن الحالة؛ لأنَّ أحوالَ المرء تظهرُ في دارِهِ ومقرِّه، فلذلك يقال: (يا فلانٌ على مكانتِكَ)، أي: اثبُتْ على ما أنت عليه، لا تنحرفْ عنهُ.

المكانةُ هي الثّباتُ على الحالِ الّذي عليه المخاطَبُ

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾:

ومع احتمال أن تكونَ المكانةُ في قوله: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ مستعارةً للأحوال الشخصيَّةِ والعقائدِ الدينيَّةِ والسُّلوك، فهي أيضًا مستعارةٌ للمقدرة، والمعنى: اعملوا منتهى مقدرتِكم واستطاعتِكم، أو على غاية تمكُّنِكم واستطاعتكم، والمكانةُ تكون مصدرًا، يقال: مَكَّنَ مَكانَةً؛ إذا تَمَكَّنَ أبلَغَ التَّمَكُّنِ، أو على ناحيَتِكُم ووِجْهَتِكُم الَّتي أنتم عليها، من قولهم: مكانٌ ومكانةٌ، كمَقام ومَقامة، وقال البيضاويُّ: "﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ أي: على حالِكم" فشُبِّهتِ الحالُ بالمكان القارِّ فيه، ووجهُ الشَّبهِ ثباتُهم في تلك الحالِ ثباتَ المتمكِّن في مكانه،

المكانةُ بمعنَى القُدرةِ والاستطاعةِ في السِّياقِ

(1) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/374.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/80.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/253.

وأمَّا تشبيهُ المكان بالزَّمان؛ ففي الشُّمول والإحاطة[1]، والمعنى: اثْبُتوا على كفرِكم وعداوتِكم[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ المَكانةِ بالمصدرِ ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾:

المبالغةُ وبقاءُ حالةِ الكُفَّارِ على إصْرارِهم على كُفرِهم

عبَّر عن المكانةِ بالمصدر الصَّريح في قوله: ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾، فالمكانةُ مصدرُ مَكَنَ، فالميمُ أصليَّةٌ، وبمعنى المكانِ. والمصدرُ الصَّريحُ مجرَّدٌ عنِ الزَّمن وغير مرتبطٍ به، ولا يفيد الدَّلالةَ عليه، فليس في صيغتهِ ما يدلُّ على تحديد الزَّمن[3]. وفائدةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ للمبالغة، بمعنى: اعملوا على تمكُّنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم، وما يتَضَمَّنُهُ هذا التَّعبير (المكانة والعمل عليها) من الدَّلالة على الحالة المستقرَّةِ الَّتي هم عليها، إصرارًا منهم على الكفرِ؛ إذِ المعنى المحوريُّ لهذا الفعلِ هو رسوخُ الشَّيء متجمِّعًا (من دقاق) في باطنٍ يلتئم عليه[4].

تَوجيهُ قراءةِ جمْعِ المكانةِ ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾:

تَعميمُ الخطابِ على كلِّ حالةٍ مُشابِهةٍ، وتعدُّدُ المخاطَبين

وقرأَ الجمهورُ: على ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ بالإفراد، وقرأَ شعبةُ عن عاصم بالألف على الجمع: ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ جمع مَكانة[5]. والجمعُ باعتبارِ جمعِ المضاف إليه، بأنَّ كلَّ واحدٍ له مكانةٌ يعملُ عليها، فجُمِعَتِ المكاناتُ اعتبارًا بتعدُّد المخاطبين، ولعلَّ القراءةَ على الجمع تناسبُ (الكُلِّيَّة) الَّتي تفيد تعدُّدَ المجاميعِ المُخاطَبةِ. ولعلَّها أيضًا تُفيد إعمامَ الخطاب للحالات المشابِهةِ في الأزمنة المختلفةِ، فيكونُ المأمورُ بـ ﴿قُلْ﴾ كلَّ مسلمٍ يدعو قومَهُ إلى الإيمانِ. ويكونُ الخطابُ لكلِّ إنسانٍ مُكلَّفٍ، فيكون معنى: مكاناتكم

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 7/340.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/67.
(3) المُبَرد، المقتضب: 3/214، وابن القيِّم، بدائع الفوائد: 1/29.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (مكن).
(5) ابن الجزريّ، النّشر: 2/263.

الَّتي هي ديارُكم، والَّتي هي قُراكم أيضًا، وقد أهلك اللهُ القُرى القريبةَ من قريشٍ - كقرى قوم هودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ - حين ظلمَ أهلُها بالكفر، فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [الكهف: 59]، وتكون ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ كنايةً، ويرشِّحُ هذا المعنى قولُه لاحقًا: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾.

بَلاغةُ اللَّفِّ والنَّشرِ في الآيةِ الكريمةِ:

وفي الآية لفٌّ ونشرٌ[1]: فاللَّفُّ قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾، ثم نَشْرٌ بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ وهو نشْرٌ مجملٌ؛ إذ المعنى: فسوف تعلمون من تكونُ له العاقِبَةُ الحَسَنَةُ أنتم أم أنا؟ وقد أفادَ هذا الفنُّ البليغُ مسائلَ مهمَّةً، منها: أنَّ كثيرًا من المُعارضين للرِّسالات مهما أتَتْهم الآياتُ، فإنَّهم يصرُّون على كفرِهم، فلا ينفعُ مَعهم إلَّا خطابُ الوعيد، وفي النَّشر المُجْمَلِ دلالةُ التَّرقُّبِ عند المعارضين المُنكرين، وهم يعيشونَ حياةَ الشُّكوك والظُّنونِ التي لا قرارَ لهم فيها ولا راحة، في حين أنَّ الرَّسولَ وأتباعَه المؤمنين يعيشون حالةَ يقينٍ مطلقٍ بأنَّ العاقبةَ ستكون لهم؛ لأنَّهم يؤمنون باللهِ وما نُزِّل على الرَّسول، ويؤمنون بالغيبِ وهم بالآخرةِ يوقنون.

المعارِضُون المُنكِرون يَعيشونَ حياةَ الشُّكوكِ، لا قرارَ لهم فيها

تَوكيدُ العملِ بـ (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾:

التَّوكيدُ بـ (إنَّ) وهو الأصلُ فيها، ويدورُ معها، حيثُ وردت، فجاءَ بالجملة الأولى غير مؤكَّدةٍ في قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، في حين أكَّد الجملةَ الثَّانيةَ بـ (إنَّ) فقال: ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ وسرُّ ذلك: أنَّ خطابَهُ لهم لا يريد منهم حقيقةً عملَهم على مكانتِهم، وإنَّما يريد التَّخويفَ لهم من جرَّاءِ هذا العمل، وتهديدَهم بخطر الاستمرارِ على مكانتِهم ممَّا هم عليه، ولكنَّه

الخِطابُ بتخويفِ المُنكرين، وتهديدِهم بخطَرِ الاستمرارِ عليه

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 6/253.

لمّا تكلَّم على عملِه، فإنَّه يريد أرادَ حقيقةَ العملِ والإصرارِ عليه، فأكَّد بـ (إنَّ) فقال: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾.

تَوجيهُ صِيغةِ التَّعبيرِ عنِ العملِ باسمِ الفاعلِ ﴿عَامِلٌ﴾:

العملُ على صِراطِ اللهِ، وصفٌ ثابتٌ في النَّبيِّ ﷺ

وقولُه: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾، أي: عاملٌ ما أمرني به ربِّي[1]، وهو سبيلُ اللهِ وصراطُهُ المستقيمُ، وعبَّرَ باسم الفاعلِ للدَّلالةِ على ثبوتِ صفةِ العمل فيه، ودوامها، وأنّ شأنَ العمل بمنزلةِ الحاصل الثَّابت المستقرِّ وصفًا له ﷺ.

نُكتةُ مُخاطَبةِ الكُفرِ بالجمعِ، وذِكْرِ الإيمانِ بالإفرادِ:

سُبلُ الضَّلالِ مُتعدِّدةٌ، وسبيلُ الهدايةِ واحدةٌ

والجملةُ تعليلٌ لمفادِ التَّسوية من الأمر في قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾، فلن يمنعَني إعراضُكم عن الهدايةِ وتصميمُكم على ما أنتم عليه، فإنِّي عاملٌ على الهداية مستجيبٌ لأوامرِ الله، حتَّى وإن كنتم أنتم جميعًا، وكنتُ فردًا، وهذا من جميلِ مغزى أن يُخاطَبَ الكُفْرُ والإعراضُ عن دينِ الله بالجمع، فيقول: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ أو ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾، ويذكرُ الإيمانَ مقابل ذلك بالإفرادِ، فيقول: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾؛ وما في ذلك من الإيماءِ إلى تعدُّد سبُلِ الضَّلال، وواحديَّةِ سبيل الهدايةِ، وهو طريقُ النَّبيِّ ﷺ وسنَّتُه، والاهتداءُ بما قاله أو فعَلَهُ رسول الله ﷺ، أو أقرَّه من القولِ أو الفعل كذلك، فضلًا عن بيان أنَّ عملَه ﷺ منبعثٌ عن الوحي.

نُكتةُ حذْفِ رُتْبةِ العملِ وماهِيتِه، في ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾:

التَّعميمُ والإيجازُ، مَناطُ إخلاصِ المؤمنِ عندَ الإنجازِ

ثم حُذِفَ متعلَّقُ: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ للتَّعميم والإيجاز، فاكتفى بقوله: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ دون ذِكرِ طبيعةِ ذلك العمل وماهيَّته؛ لأنَّه معلومٌ بالضَّرورةِ، متضمِّنٌ في آيات اللهِ تعالى وأوامرِهِ سبحانه. فقولُه: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ تعليلٌ له، فكأنَّه قيل: فإنِّي فاعلٌ على حالتي أيضًا،

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/80.

وهذا وعيدٌ، وحذْفُ مُتَعَلَّقِهِ فيه مبالغةٌ لاحتمال تقديرِهِ بشيءٍ آخرَ، والإيهامِ بأنَّهُ لم يذكرْ ما يعمله؛ لأنَّه أمرٌ عظيمٌ، وهذا لا ينافي تقديرَهُ: (على مكانتي)، إذ المرادُ منه مطلقُ حالِه، لا حالُهُ التي هي موجودةٌ، والحذفُ يناسب العمومَ، ويحتمل أن يكونَ جوابًا واحدًا، والغرضُ من الحذف الاختصارُ مع عدم الاقتصارِ، بمعنى: إنِّي عاملٌ ما استطعتُ لا أقفُ على حالي ومكاني[1]. وهذا ينطبق على كلِّ مؤمنٍ، إذ إنَّ رسولَ الله ﷺ قدوةٌ للمؤمنين الذين يبذلون قُصارى جهدِهم في العمل إيمانًا منهم وتصديقًا وثباتًا على حالتهم ومكانتهم في الدَّعوة والإخلاص.

سِرُّ عَدَمِ التَّصْريحِ بالعَذابِ:

مِن بديعِ نَظْمِ القرآنِ، حُسْنُ أَدبِ الحِوارِ

قولُهُ: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ غايةٌ في حسنِ الأدب في الخطابِ؛ إذ لم يخاشِن في الكلام، ولم يُصَرِّحْ بالعذابِ، ومع هذا ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾، وعاقبةُ الدار: الجَنَّةُ، ويدلُّ على أنَّ المُنْذِرَ واثقٌ بأنَّ العاقبةَ الحسنةَ له لا لهم، يعني: إنِّي عالمٌ بذلك اليوم، وأنتم غدًا ستعلمونه[2]. وهذه من جماليَّاتِ الأدبِ القرآنيِّ في الخطابِ والحوار مع المعاندين، وذلك لمقامِ الرَّسولِ ﷺ.

دَلالةُ إثباتِ (الفاءِ) في قولِه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾:

الوَعيدُ مُتفرِّعٌ عنِ التَّهديد؛ لِعدمِ تَذكُّرِهم وغُرورِهم

وقولُهُ: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ رتَّب على عملِهم وعملِه الإنذارَ بالوعيد، فقال: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ بفاء التَّفريع؛ للدَّلالة على أنَّ هذا الوعيدَ متفرِّعٌ على ذلك التَّهديد[3]. ولمَّا كان وقوعُ المتوعَّدِ به سببًا للعلم بالعاقبة، وكان السِّياقُ لعدم تذكُّرِهم وغرورِهم وقلَّةِ فطنتِهم؛ حَسُنَ إثباتُ الفاءِ[4].

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 7/340.
(2) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/386.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/91.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/720.

فائِدةُ (سوف)، في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾:

تَرقُّبُ التَّهديد، وانْشغالُ البالِ، بما يُوحِيهِ منَ الوعيدِ

(سوف) كالسِّين، وهو حرفُ تسويفٍ وتنفيسٍ أو استقبالٍ، وهي أوسعُ زمانًا من السِّين عند البَصْرِيِّيْنَ؛ لأنَّ كثرةَ الحروف تدلُّ على كثرة المعنى، وهي مرادِفةٌ لها عند غيرِهم، ومرادٌ منه تأكيدُ الوقوع؛ لأنَّ حرفَي التَّنفيس يؤكِّدان المستقبلَ[1]، وهو يتضمَّن ترقُّبَ ذلك التَّهديدِ، وانشغالِ البالِ بما يوحيه ذلك من الوعيدِ. فكلَّما طالت مدَّةُ انتظارِهم الوعيدَ؛ زادَ عذابُهم واضطرابُهم وخوفُهم من وقوعِه، وهو أبلغُ في إيلامِهم وتوجُّعِهم، وهو المعنى الَّذي أفادَهُ استعمالُ ﴿فَسَوْفَ﴾ هنا.

دَلالةُ صِيغةِ المُضارِعِ في ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

العبارةُ بالتَّنفيسِ والمضارعِ، تأكيدٌ لِما سيحصلُ لهم يومَ القيامَةِ

وصيغةُ المضارعِ تدلُّ على الاستقبالِ، فقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ صريحٌ في التَّهديدِ؛ لأنَّ إخبارَهم بأنَّهم سيعلمون يفيدُ أنَّه يعلمُ وقوعَ ذلك مستقبلًا لا محالةَ، وتصميمَهُ على أنَّه عاملٌ على مكانتِه، ومخالفٌ لعملِهم، ويدلُّ كذلك على أنَّه موقِنٌ بحُسْنِ عقباه، وسوءِ عُقباهم، ولولا ذلك لعَمِلَ عملَهم؛ لأنَّ العاقلَ لا يرضى الضُّرَّ لنفسِه[2]. فالعبارةُ من حرفِ التَّسويف والمضارع تأكيدٌ للعلم الَّذي سيحصلُ لهم يوم القيامةِ.

بَلاغةُ الكنايةِ في ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾:

وُثوقُ المُتكلِّم بالمستقبلِ، مِنْ صِدقِ عِلْمِهِ به

دلَّ قولُه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ على أنَّ علمَهم يقع في المستقبل. وأمَّا هو ﷺ فعالمٌ من الآنَ، ففيه كنايةٌ عن وثوقِه بأنَّه مُحِقٌّ، وأنَّهم مبطلونَ[3]. وسياقُ الكلام يُرشِّح تلك الكنايةَ، ويؤكِّدُ العلمَ المستقبليَّ والوثوقَ منه، فيُبيِّنُ أنَّ علمَ عاقبةِ أمرهم عنده، وأنَّه سيُريهم ذلك في يومِ القيامة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/91.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/92.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/92.

بَلاغةُ التَّرديدِ:

إبـــرازُ صُـــورةِ الإنصافِ، بعدَ بـذْلِ الوُسْعِ في هِدايتهم

وجملةُ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ ترديدٌ بينَهُ ﷺ وبينَهُم، ومعلومٌ أنَّ هذا التَّهديدَ والوعيدَ مختصٌّ بهم، وأنَّ عاقبةَ الدَّارِ الحُسنى هي له ﷺ، وقد عُلِمَ ما هو شرٌّ، وما هو خيرٌ، ولكنَّه أبرزَ في صورة التَّرديدِ، إظهارًا لصورة الإنصافِ[1]. وأنَّ اللهَ لا يظلم النَّاس شيئًا، وأنَّه سبحانه لا يُعذِّب أمَّةً حتى يبعث فيهم رسولًا يبيِّن لهم سبيلَ هدايتهم.

معنَى ﴿مَن﴾ بينَ الموصوليَّةِ والاستفهامِ:

لا يَعلمُ مَصائرَ الـعِـبـادِ إلَّا العليمُ بالسِّرِّ وأخفَى

وقوله: ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾؛ و﴿مَن﴾ يمكن أن تكون اسمًا موصولًا بمعنى الَّذي، أو أنْ تكونَ استفهامًا[2]، فإنْ جُعِلَت ﴿مَن﴾ استفهاميَّةً بمعنى: أيُّنا تَكونُ لَهُ عاقبةُ الدَّار الحسنى؟ أو تعلمون أحدَنا تكون له عاقبةُ الدَّار؟ وموضع: ﴿مَن﴾ الرَّفعُ على الابتداء، وجملة: ﴿تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ خبرُه[3]. وإنْ جُعِلَتْ خبريَّةً تكون بمعنى الَّذي، ويكون محلُّها النَّصبَ بـ ﴿تَعْلَمُونَ﴾، أي: فسوف تعرفون الَّذي تَكونُ لَهُ عاقبةُ الدَّارِ[4].

تَوجيهُ قراءةِ الياءِ ﴿يَكُونُ لَهُۥ﴾:

عاقبةُ الدَّارِ، أي: خَيرُها وفَلاحُها

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ﴿مَن يَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ بالياءِ، وكذلك في القصصِ ﴿وَمَن يَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ [القصص: 37] بالياء أيضًا. وقرأ الباقون ﴿تَكُونُ لَهُۥ﴾ بالتَّاء في السُّورتين[5]. وروى المفضَّل عن عاصمٍ هاهنا وفي القصص مثلَها، وكذلك روى خَلَّادٌ عن حسين عن أبي بكرٍ. وقرأ الباقون بالتَّاءِ في السُّورتين[6]، ويجوزُ في قراءةِ التَّذكير وجهان:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/653.
(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/348.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/92.
(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/183.
(5) النّيسابوريّ، المبسوط في القراءات العشر: 203.
(6) الدّانّي، جامع البيان في القراءات السّبع: 3/1065.

أحدهما: أنَّ العاقبةَ تأنيثُها مجازيٌّ، والتَّأنيثُ المجازيُّ إذا كانت (الفاعلة) تأنيثُها مجازيًّا في الفعل التَّذكير والتَّأنيث.

الثاني: أنَّه فَصَلَ بين الفعل وفاعله فَصْلٌ، وهو قوله: ﴿يَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ﴾، والفَصْلُ بين الفعل وفاعله يسوِّغ تذكيرَ الفعل، ولو كان فاعلُه مؤنَّثًا حقيقيًّا، كما هو معروفٌ في علم النَّحو[1]. وتدلُّ قراءةُ ﴿يَكُونُ لَهُۥ﴾ على معنى: (من يكونُ له خيرُ العاقبةِ)، وتدلُّ قراءةُ ﴿تَكُونُ﴾ على معنى العاقبةِ الدَّار.

فائدةُ شِبْهِ الجُملةِ في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ﴾:

كلُّ إنسانٍ تَكونُ له عاقبةُ الدَّارِ الآخرةِ، أو تكونُ عليه

و﴿لَهُۥ﴾ تعطي دلالةً على أنَّ الإيمانَ ستكون عاقبةُ الدَّار لصالحِه؛ لأنَّ الآخرين لن تكونَ لهم؛ بل عليهم، فجملةُ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ توهِمُ أنَّ الكافرَ ليست له عاقبةُ الدَّارِ، وذلك مُشكِلٌ، وقيل: العاقبةُ تكونُ على الكافر، ولا تكونُ له، كما يُقال: له الكثرةُ ولهم الظَّفَرُ، وفي ضدِّه يقال: عليكم الكثرةُ والظَّفرُ[2]. فكأنَّ الظَّالمين إن تَنَلْهُمْ عاقبةٌ؛ فهي ليست لهم، وإنَّما عاقبتُهُم عليهم، ولن يُفلِحَ الظَّالِمون، ويقول سبحانه من بعد ذلك: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾[3]. ويفهمُ من سياقِ الآية أنَّ المعنى: (من تكون له عاقبة الدَّار ومن تكونُ عليه).

بَلاغةُ الكِنايةِ في ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾:

عاقبةُ الدَّارِ هي مآلُ الآخرةِ وهي الجنَّةُ

وعبارةُ ﴿ٱلدَّارِ﴾ كنايةٌ عن خاتمة الخيرِ، فكأنَّه قيل: من يكونُ له عاقبةُ الخير، سواء كان الظَّفَر في الدُّنيا[4]. و﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾، أي: مآلُ الآخرةِ، ويحتمل أن يُرادَ مآلُ الدُّنيا بالنَّصر والظُّهورِ، ففي

(1) الشنقيطي، العذب النمير: 2/311.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/157.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/3659.
(4) الطّيبي، فتوح الغيب: 6/254، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/386.

الآية إعلامٌ بغيبٍ[1]. و﴿عَقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾: العاقبةُ الحسنى الَّتي خلقَ اللّٰهُ تعالى هذه الدَّارَ لها[2].

إيثارُ لفْظِ العاقبةِ، في قوله تعالى: ﴿عَقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾:

تُستعملُ العاقبةُ فيمَا يَختصُّ بالثَّوابِ والجَزاءِ الحسَنِ

والعاقبةُ في اللُّغةِ: آخِرُ الأمرِ، وأَثَرُ عملِ العامل، فعاقبةُ كلِّ شيءٍ هو ما ينجلي عنه الشَّيءُ، ويظهر في آخره من أثرٍ ونتيجةٍ، وتأنيثُه على تأويل الحالة، فلا يقال: عاقِبُ الأمرِ، ولكن عاقبةٌ وعُقبى، وقد خُصِّصَ استعمالُ لفظِ العاقبةِ بالحسنةِ، قال الرَّاغب: العاقبةُ والعُقبى يختصَّان بالثَّواب، نحو قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83][3]، وهذا سببُ إيثارِ استعمالِ لفظِ العاقبة في بيان حالِ المُتَّقين، وما ستؤولُ إليه أمورُهم، وبالإضافةِ قد يُستَعملُ في العقوبةِ نحو قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الرّوم: 10].

وَجْهُ تعريفِ الدَّارِ، في قوله تعالى: ﴿عَقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾:

الدَّارُ علامةٌ على الاستقرارِ والاطْمئنانِ

والدَّارُ: الموضِعُ الذي يحلُّ به النَّاسُ، من أرضٍ أو بناءٍ، وهو علامةُ الاستقرارِ، فمن لا دار له لا قرارَ له، وتقدَّم عند قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾، وتعريفُ الدَّارِ هنا تعريفُ الجنس. فيجوزُ أنْ يكونَ لفظُ الدَّارِ مطلقًا، على المعنى الحقيقيِّ، فإضافةُ عاقبةٍ إلى الدَّارِ إضافةٌ حقيقيَّةٌ، وهي الفوزُ بالدَّارِ، والظَّفَرُ والنِّزاعُ والتَّنافُسُ عليها[4].

بَلاغةُ الاستعارةِ في قوله تعالى: ﴿عَقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾:

حالةُ المؤمنين الفائزين كَحالةِ الغالِبِ على امْتلاكِ دارِ عدُوِّه

وقولُه: ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ مكنيَّةٌ؛ لتكون كالمثل السَّائرِ يُضرَبُ في المواقف المُشابهة لموقفِ رسول اللّٰه ﷺ مع قومِه، فشبَّهت حالةَ المؤمنين الفائزين في عملِهم، بحالةِ الغالب على امتلاك دارِ عدوِّه، وهم المشركون، وحُذِف ما

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/348.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/68.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/92.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/92.

يدلُّ على الهيئةِ المشبَّهِ بها، ورُمِزَ إليه بذكرِ ما هو من روادِفِهِ، وهو ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾. ويمكنُ أن تكونَ الدَّارُ مستعارَةً للحالةِ الَّتي استقرَّ فيها أحدٌ، تشبيهًا بالمكان في الاحتواء، فتكون إضافةُ عاقبةٍ إلى الدَّار إضافةً بيانيَّةً، أي: العاقبةُ الحُسنى الَّتي هي حالُه، فيكونُ الكلامُ استعارةً مصرَّحةً[1]. "ومن محاسنِها هنا: أنَّها بنت على استعارةِ المكانةِ للحالةِ في قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، فصار المعنى: اعملوا في دارِكم ما أنتم عاملونَ، فسوف تعلمونَ مَن تكونُ له عاقبةُ الدَّار، وفي الكلام مع ذلك إيماءٌ إلى أنَّ عاقبةَ تلك الدَّار، أي: بلدُ مكَّةَ، أن تكونَ للمسلمين، كقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء: 105]"[2].

بَلاغةُ التَّعريضِ في ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: لا يفوزُ بحاجتِه عندَ اللهِ مَنْ عملَ بخلاف ما أمرَ اللهُ به، والتَّعريضُ في الآية بالَّذين يخاطبُهم الرَّسولَ أنَّهم من الظَّالمين الَّذين لا يفلحون في الآخرةِ، ثمَّ إنَّ التَّعريفَ عامٌّ يشمل كلَّ من أنكر الرِّسالةَ، وعملَ بغير مقتضاها.

الظَّالم كلُّ مَن أنكرَ الرِّسالةَ وعمِلَ بغيرِ مُقتضَاها

بَلاغةُ فِعْلِيَّةِ جُملةِ الفاصلةِ:

قال: ﴿لَا يُفۡلِحُ﴾، والفعلُ مضارعٌ يفيد التَّجدُّدَ، ودلالتُهُ عدمُ فلاح الظَّالمين مع المستقبل، فيتجدَّدُ عَدَمُ فلاحِهم، ويستمرُّ بتجدُّد ظلمِهم واستمرارِهم عليه، فهم لا يُفلحون في الدُّنيا، ولا يُفلحون في الآخرةِ؛ إذ إنَّ معنى الفلاحِ في الدُّنيا طمأنينةُ النَّفس بما أودعهُ اللهُ فيها من فطرةِ حبِّ رضاءِ اللهِ سبحانه.

الفلاحُ طُمأنينةُ النَّفسِ بما أودَعهُ الله فيها منَ الفِطرةِ

التَّعبيرُ باسْمِ الفاعلِ مجموعًا ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

مِن سُنَّةِ اللهِ تعالى في خلقِه، أنَّه لا يفلِحُ الظَّالِمون، أي: لا يفوز

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/92.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/92.

الظَّالمون، والتَّعبيرُ بالوصفِ يشير إلى أنَّ الظُّلمَ هو سببُ الخسرانِ، وإنَّه وإن بدا الظُّلم قويًّا غالبًا فائزًا، فيكون ذلك إلى حينٍ، والعاقبةُ للمنصفين المقيمين للحقِّ، وأفادَ الجمعُ أنَّ للظُّلمِ صورًا شتَّى: ظلمٌ في العقيدة، وظلمٌ في العمل، وظلمٌ في الحكم، وظلمٌ في المعاملة بين النَّاس، فإنَّ الظَّالمَ لا يفوز في نهايته، وإنْ فاز في بعض الأمور العَرَضِيَّةِ، واللّهُ هو الحكَمُ العدْلُ[1]. وقد أفادَ التَّعبيرُ باسم الفاعل شمولَ أنواع الظُّلم كلِّها، لكنَّ السِّياقَ يخصِّص ظلمَ العقيدةِ، وهو الإشراكُ باللّه، ثمَّ يكون إلى سائرِ أنواع الظُّلم الأخرى، كلٌّ بحسبِ أثرِه في الحياة.

شُمولُ أنواعِ الظُّلمِ كلِّها، وأعظمُ الظّلمِ، ما تعلّقَ بالشِّركِ

بَلاغةُ الاحْتباكِ في الآيةِ الكريمةِ:

وقولهُ: ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فالآيةُ من الاحتباك؛ إذ إنَّ ذِكْرَ العاقبةِ أوَّلًا دليلٌ على حذْفِها ثانيًا، وذكرَ الظُّلم ثانيًا دليلٌ على حذْفِ العدل أوَّلًا[2]. والتَّقديرُ: (من تكون له عاقبة الدَّارِ ومن تكونُ عليه، إنَّه يفلح المؤمنون، ولا يفلح الظَّالمون).

المفلحونَ تكونُ لهم عاقبةُ الدَّارِ، وعَكْسُهم الظَّالمون

دَلالةُ ضَميرِ الشَّأنِ، في ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

والضَّميرُ المجعولُ اسمُ (إنَّ) ضميرُ الشَّأنِ؛ تنبيهًا على الاهتمام بهذا الخبرِ، وأنَّه أمرٌ عظيمٌ[3]؛ إذ إنَّ لهذا الأمر شأنًا عظيمًا عند اللّهِ سبحانه فالظَّالمون لا يُفلحون عند اللّهِ، وهل أعظمُ ظلمًا من التَّشكيكِ بالرِّسالةِ، وتكذيبِ النَّبيِّ وردِّ دعوتهِ للإيمان؟

أعظمُ الظُّلمِ هو إنكارُ الرِّسالةِ والإيمانِ

إيثارُ لفْظِ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ على (الكافرون):

ثمَّ جزمَ الحكمَ بـ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ فلا ينجحُ سعيُهم[4]؛

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/2684.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/720.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/93.
(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/348.

فوضعَ الظَّالمين موضعَ الكافرين؛ لأنَّه أعمُّ وأكثرُ فائدةً[1]، فقولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أصلُه: لا يفلح الكافرون؛ لأنَّه تذييلٌ وتأكيدٌ لما سبق، وليس فيه إلَّا حديثُ الكذبِ والتَّكذيب، فعُلِمَ منه أنَّ دأْبَهم الكِذْبُ، وأنَّهم ليسوا من الصِّدق في شيءٍ[2]. وأنَّ ظلمَهم هو كِذْبُهم على اللهِ وتكذيبُهم للرِّسالة والرَّسول.

التَّعبيرُ بـ (الظالمون) أعمُّ، وهمُ الَّذين ظلمُوا أنفسَهم بالكُفرِ

وَجهُ التَّعريفِ في لفظةِ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

تعريفُ لفظةِ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ للاستغراقِ، فيشملُ هؤلاءِ الظالمين ابتداءً[3]، ويُعمَّم بعد ذلك على جنس الظُّلم بأنواعه.

صِفةُ الظُّلمِ مُرتبطةٌ بالخُسرانِ

نُكتةُ العُدولِ عنِ المُضمَرِ إلى المُظهَرِ، في جُملة الفاصلةِ:

وهذا الأسلوبُ من الإنذار فيه من البَراعةِ والبَلاغةِ ما ليس في غيرِه، فتعقيبُ قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، للعُدولِ من المُضمرِ إلى المُظهر؛ إذ لم يصرِّح بنفي الفَلاح عنهم، وقوله: ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ مع الإعمامِ فيه المبنيِّ على الأمرِ في قولِه: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ وهذا طريقٌ من الكلام المنصفِ وإرخاءِ العنان، حيث ضَمِنَ ذلك شِدَّةَ الوعيد، والوُثُوقَ بأنَّ المُنذرَ مُحِقٌّ، والمُنذَرَ مُبطِلٌ[4].

براعةُ الخطابِ في أدبٍ حَسَنٍ، مُتضمِّنٌ شدَّةَ الوعيدِ

بَلاغةُ توكيدِ نفْيِ جُملةِ الفاصلةِ بـ (إنَّ):

الغرضُ من قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بيانُ أنَّ قولَه: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ تهديدٌ وتخويفٌ لا أنَّه أمرٌ وطلبٌ، ومعناه: أنَّ الكفَّارَ من أمثال هؤلاءِ المُعاندين المُنكرين، لا يفلحون، ولا يفوزون بمطالبِهم البتَّة[5]. ولن تقبلَ معذرتُهم مهما قدَّموا من الحججِ والمسوِّغات، وذلكم مظنَّةُ التَّوكيدِ.

المُعانِدون المُنكِرون لا يُفلحُون، ولن تُقبلَ مَعذِرتُهم

(1) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 2/183.
(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 6/49.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/93.
(4) الطّيبي، فتوح الغيب: 6/254 - 255.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/157.

دَلالةُ التَّعليلِ في جُملةِ التَّذييلِ:

الفلاحُ والفوزُ للمؤمنين بالرِّسالةِ والرَّسولِ

والجملةُ تذييلٌ للوعيد، يتنزَّلُ منزلةَ التَّعليل، أي: لأنَّه لا يفلحُ الظَّالمون، ستكون عقبى الدَّارِ للمسلمين، ويكونُ الفلاحُ والفوزُ للمؤمنين بالرِّسالة والرَّسول.

تَوجيهُ المُتَشابهِ اللَّفْظيِّ، في آياتِ الأنعام: (135)، والزُّمر: (39)، وهُودٍ: (93):

الآيةُ هنا وفي الزُّمرِ؛ عن كفَّارِ العربِ، والتَّهديدُ منَ اللهِ أشدُّ من تهديدِ النّبيِّ

ومن نظائر هذه الآية الكريمة قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الزّمر: 39 - 40]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ [هود: 93]؛ إذ أفردَت آيةُ هودٍ بمجيء حرف التَّسويف دون اقترانِ فاءِ التَّعقيب به، مع اتِّفاق الآيات الثَّلاث في التَّهديد وحرف التَّسويف، وفي هودٍ لم تُسبَق العبارةُ بـ ﴿قُلْ﴾ وفي الأنعام والزُّمر بدأت بـ ﴿قُلْ﴾، فهذه الآياتُ تتَّفق على وعيد من كَفَرَ وكذَّب الرُّسلَ والرِّسالات، وآيةُ الأنعامِ وآيةُ الزُّمر؛ أُريدَ بهما كفَّارُ العرب من هذه الأمَّة، وقد افتُتِحَتا بأمرِهِ سبحانه نبيَّه ﷺ بوعيدِهم في قولهِ تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، فَقَوِيَ في هاتين الآيتين تقديرُ معنى الشَّرطِ المُنْجَرِّ تقديرهُ في الأوامر، لافتتاحِها لأمرِهِ تعالى نبيَّهُ ﷺ، ثم أمْرِهِ ﷺ في قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾؛ فاعتضدتْ ما يستدعي الجوابيَّةَ بالفاء، فوردتْ في الجواب المبنيِّ على الشَّرطِ المُقدَّر، بعد هذا الأمر، ولمّا كانت آيةُ هودٍ إخبارًا لنبيِّنا ﷺ، فَضَعُفَ فيها تقديرُ الشَّرطِ، فلم تدخُلِ الفاءُ، وجاء كلٌّ على ما يجبُ[1].

كما أنَّ للقائل في كلتا الحالتين أهميَّةً في تفسيرِ المسألةِ، ففي آيةِ سورةِ الأنعام: اللّهُ تعالى هو الذي أمرَ رسولَهُ بالتَّبليغ، أمرهُ أن

(1) الغرناطيّ، ملاك التأويل: 1/171 - 172.

يبلِّغَ النَّاسَ كلامَ ربِّه، وهذا تهديدٌ لهم، فأصلُ التَّأديب من اللهِ تعالى أمَّا آيةُ سورة هودٍ؛ فجاءت في شعيبٍ ﷺ وليس فيها أمرُ تبليغٍ من اللهِ تعالى فالتَّهديد إذًا، أقلُّ في آيةِ سورةِ هودٍ، ولهذا فقد جاء بالفاءِ في ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، في الآية الَّتي فيها التَّهديدُ من اللهِ للتّوكيد، ولمَّا كان التَّهديدُ من شعيبٍ ﷺ حُذِفَ الفاء ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّ التَّهديدَ أقلُّ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(العاقِبةُ)، و(الخاتِمةُ)، و(النِّهايةُ):

الـعـاقـبـةُ ما يـأتِي في آخِـرِ الـشَّيءِ، وتـدلُّ عـلى الـمُتابعةِ والإصـــــرارِ للوصولِ

قوله: ﴿عَقِبَةُ﴾ عَقِبَ: والعَقِبُ: مُؤخَّرُ القَدَم. وعَقِبُ الرَّجُلِ: وَلَدُه وولَدُ ولَدِهِ الباقونَ من بَعْدِه، وأتى فلانٌ خيرًا، فعقَّبَ بخيرٍ منه، وأردفَ بخيرٍ منه، واستعقبَ من أمرِه النَّدامةَ وتعقَّبَها، وتعقَّبتُ ما صنعَ فلانٌ: تَتبَّعْتُه[2]. فالعاقِبةُ هي ما تُؤَدِّي إليه التَّأدِيَةُ[3]. والعاقبةُ أصلُها كلُّ ما يأتي في عَقِبِ الشَّيء، أي: آخِرِه، أي: هي ما يؤولُ إليه أمرُه، ثمَّ هي تكونُ حسبَ حالِ الشَّيءِ من خيرٍ أو شرٍّ، وقد جاءت (العاقبة) في القرآنِ الكريم نحوًا من إحدى وثلاثين مرَّةً، فوردت موكولةً إلى اللهِ تعالى من حيثُ القضاءُ بها في سورتي الحج: 41، ولقمان: 22، كما جاءت لبيان أنَّها تكون حسَبَ الأعمالِ تنبيهًا على الالتزام بالعمل الصَّالح في سورتي الأنعام: 135، والقصص: 37، وللتَّنويه بمآل المتقين في سُوَرِ الأعراف: 128، وهود: 49، وطه: 132، والقصص: 82، وفي سائر المواضعِ للتَّنبيه على سوء مآل المتمرِّدين على اللهِ[4].

فدلالةُ العاقبةِ على المُتابعةِ والإصرارِ واضحٌ، فيُفهمُ من قوله:

(1) السّامرائّي، لمسات بيانيّة: 1/706.
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (عقب).
(3) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 551 - 552.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عقب).

﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: 128]، أو قوله: ﴿عَقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ لما كان لديهم من متابعة إيمانهم، وإصرارِهم على سلوكِ السَّبيل الَّتي توصلُهم إلى الآخرةِ، فكانت عاقبتُهم الفوزَ بالجنانِ.

ولذلك آثرَ النَّظمُ استعمالَ لفظِ ﴿عَقِبَةُ﴾ في هذا السِّياق، دون ما يقاربُهُ من الألفاظ.

وخاتمُ كلِّ شيءٍ: آخرهُ، و(الخاتِمة)، الخَتْمُ والطَّبعُ: وهو تأثيرُ الشَّيء كنقشِ الخاتم، ويتجوَّز بذلك تارةً في الاستيثاقِ من الشَّيء، ونحو ذلك: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [البقرة: 7]، وتارةً يُعتبرُ منه بلوغَ الآخر، ومنه قيل: ختمتُ القرآنَ، أي: انتهيتُ إلى آخرِه، وقولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ [الأنعام: 46]، إشارةٌ إلى ما أجرى الله به العادةَ أنَّ الإنسانَ إذا تناهى في اعتقادٍ باطل، أو ارتكابِ محظورٍ ولا يكون منه تَلَفُّتٌ بوجهٍ إلى الحقِّ يورثُهُ ذلك هيئةَ تمرُّنِه على استحسان المعاصي، وكأنَّما يختم بذلك على قلبِه، وقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: 40]؛ لأنّه خَتَمَ النُّبوَّةَ، أي: تمَّمها بمجيئِه[1]. وخاتِمةُ السُّورةِ: آخرُها. وخاتمُ العملِ وكلِّ شيءٍ: آخرهُ[2].

و(النِّهايةُ): الغايةُ، حيث ينتهي إليه الشَّيءُ، والإنهاءُ: إبلاغُك الشَّيءَ، وأنهيتُ إليه السَّهمَ، أي: أوصلته إليه[3]. والنِّهاية، والنِّهاء: غايةُ كلِّ شيءٍ وآخرهُ، وذلك لأنَّ آخرَهُ ينهاهُ عن التَّمادي، فيرتدعُ، وانتهى الشَّيءُ، وتناهى، ونهى: بلغَ نهايتَه[4]. و(الإنْهاءُ) الإبْلاغُ، و(أَنْهَى) إلَيْهِ الخَبَرَ (فانْتَهَى) و(تَناهَى)، أَيْ: بَلَغَ. وَيُقالُ: بَلَغَ نِهايَتَهُ[5]، ففي معنى النِّهاية: تَحَقُّقُ غايةٍ، أو تحقُّقُ مطلبٍ إلى مُنتهاه.

(1) الراغب الأصفهانّي، المفردات: (ختم).
(2) الخليل، العين: (ختم).
(3) الخليل، العين: (نهي).
(4) ابن سيده، المحكم: (نهي).
(5) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (نهي).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني عشر، سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 12 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-64-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 12 : سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-64-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1637585 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»